الفصل الثاني

من رحيق السيرة

١- الرسول ﷺ يـــودّع الأمـــة

٢- حجـــــة الـــــــوداع

٣- وفاته ﷺ وحسم أمر الخلافـــة

١- الرسول ﷺ يودع الأمة

بينما كان الإسلام يتقلّد مكانته الطبيعية لقيادة البشرية على مستوى جزيرة العرب وخارجها بدأت مراسم الوداع.

استقبال وفود وإرسال رسائل:

استقبل الرسول ﷺ وفود العرب التي جاءت مُعلِنةً دخول أقوامها في الإسلام أفواجًا أو خضوعهم له، وأرسل ﷺ الرسائل إلى الملوك خارج جزيرة العرب باعتبار أن دعوة الإسلام عالمية.

فمنذ فجر الإسلام، ودعوته عالمية حقًا، فقد كان محمد ﷺ سابق العرب، وكان بلال ﷺ سابق الأحباش، أما صهيب ﷺ فكان سابق الروم، وكان سلمان الفارسي سابق الفُرس، وأصبح في مكانة أقرب ما تكون إلى مكانة أهل البيت، ولهذا قدَّرَ أهل الدعوة إلى الإسلام أن الله ﷻ [.ألقى على عاتقهم واحدًا أسمى، ذلك الواجب هو: هداية البشر إلى الحق وإرشاد الناس جميعًا إلى الخير، وإنارة العالم كله بشمس الإسلام .][1]، ولهذا قالوا: [أما العالمية أو الإنسانية فهي هدفنا الأسمى وغايتنا العظمى وختام حلقات سلسلة الإصلاح ..][2].

إرجاء الحج حتى تزول بدع المشركين:

وبالرغم من أن الحج فُرِضَ عام ٩ هجرية بعد غزوة تبوك، إلا أنه ﷺ لم يحج في هذا العام، لقد عين ﷺ أبا بكر الصديق ﷺ أميرًا على الحج، وأجّل حجه

١- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ٣٤، ط المؤسسة الإسلامية

٢- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ٢٣١، ط المؤسسة الإسلامية

إلى عام مُقبل ريثما تُزال بعض بدع ومظاهر الشرك التي كانت تُمارَس في الحج؛ الأمر الذي لم يتحقق إلا بمنع المشركين عن المسجد الحرام، وكان ذلك بإعلان تم أثناء الحج الأول عام ٩ هجرية؛ ليأتي موسم الحج في العام العاشر للهجرة فلا يحج إلا المسلم

وحج رسول الله ﷺ حجة الوداع، فكان وداعه للأمة في مؤتمر عام

وداع للنفس بمضاعفة الطاعات:

وقبل أن يودع الرسول ﷺ الأمة في مؤتمرها العام، ودّع النفس في اعتكاف خاص، نعم، كانت حياة الرسول ﷺ كلها حسنة، إلا أن الله ﷻ جعل خاتمته أحسن، حيث زاد ﷺ من الطاعة والاتصال بالله ﷻ عند اقتراب أجله ﷺ، يقول أبو هريرة ﷺ. كَانَ جِبْرِيلُ عليه السلام يَعْرِضُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْقُرْآنَ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، فَعَرَضَ عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ فِي الْعَامِ الذي قُبِضَ فِيهِ، وَكَانَ يَعْتَكِفُ كُلَّ عَامٍ عَشْرًا، فَاعْتَكَفَ عِشْرِينَ فِي الْعَامِ الذي قُبِضَ فِيهِ [البخاري، الحديث ٤٦١٤]

هكذا ودّع رسول الله ﷺ رمضان، أو ربما كان رمضان السنة العاشرة من الهجرة هو الذي يودع رسول الله ﷺ، أما نحن فنستفيد من ذلك أن الاستزادة من الخير كلما اقترب الأجل، أمر يحتاجه كل مسلم ومسلمة.

*****

٢ - حجة الوداع

غادر رسول الله ﷺ المدينة بين الظهر والعصر في يوم السبت السادس والعشرين من شهر ذي القعدة قاصدًا الحج، فصلّى الظهر بالمدينة أربعًا، ثم صلى العصر بذي الحليفة ركعتين قصرًا، ووصل ﷺ مكة صبيحة الرابع من ذي الحجة[١]

الرسول قدوتنا

وفي صحيح الحديث الشريف وصف دقيق لحجة الوداع، يروي مُحَمَّدُ بن عَلِيِّ بن الْحُسَيْنِ ﷺ أنه سأل جَابِرَ بن عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قائلاً أَخْبِرْنَا عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسْعًا وَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي الْعَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيَعْمَلَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ [الى باقي من الحديث ٣٠٦٥]

محمد ﷺ رعيمنا

وإذ اقتدى المسلمون برسول الله ﷺ فيما عَمِلَ به باعتباره القدوة، فإنهم التزموا بالرجوع إليه فيما يلتبس عليهم من الأمور باعتباره الرعيم، ففي قصة حديث جابر ﷺ فَخَرَجَ وَخَرَجْنَا مَعَهُ، فَأَتَيْنَا ذَا الْحُلَيْفَةِ، فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بن أَبِي بَكْرٍ، فَأَرْسَلَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَيْفَ أَصْنَعُ؟ قَالَ «اغْتَسِلِي وَاسْتَثْفِرِي[٢] بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي»، فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ

١- محمد هاشيل، عروة تبوك، ص ٣٥، دار الفكر ١٩٧٨

٢- الاستثفار أن يشد المرأة وسطها، وتضع خرقة على فرج الدم

رَكِبَ الْقَصْوَاءَ حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ[1] قَالَ جَابِرٌ: نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ بَيْنَ رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلُ ذَلِكَ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ، مَا عَمِلَ بِهِ مِنْ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ [ابن ماجه، من الحديث ٣٠٦٥]

الرفق بالناس منهجه ﷺ:

.. فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لا شَرِيكَ لَكَ» وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ، فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ، قَالَ جَابِرٌ: لَسْنَا نَنْوِي إِلا الْحَجَّ، لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ، حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ اسْتَلَمَ الرُّكْنَ[2] فَرَمَلَ[3] ثَلاثًا وَمَشَى أَرْبَعًا، ثُمَّ قَامَ إِلَى مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فَجَعَلَ الْمَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ، فَكَانَ أَبِي يَقُولُ وَلا أَعْلَمُهُ إِلا ذَكَرَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهُ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ. ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَيْتِ فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[4] وَقَالَ: «نَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ»، فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ[5] عَلَيْهِ حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ، فَكَبَّرَ اللَّهَ وَهَلَّلَهُ وَحَمِدَهُ وَقَالَ «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ

١- القصواء اسم ناقته ﷺ، والبيداء الصحراء

٢- استلم الركن لمسه وقبله

٣- الرَّمَل المشي السريع مع مقارب الخطى

٤- من الآية ١٥٨ من سورة البقرة، والشعائر جمع شعيرة، وهي العلامة، وشعائر الله معالم دينه

٥- رقي عليه صعد فوقه

وَحْدَهُ» ثُمَّ دَعَا نَيْسَ ذَلِكَ، وَقَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ فَمَشَى حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ[1] رَمَلَ فِي بَطْنِ الْوَادِي حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا -يَعْنِي قَدَمَاهُ- مَشَى حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا، فَلَمَّا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ قَالَ: «لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحْلِلْ وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً» فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّرُوا إِلا النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ، فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لأَبَدِ الأَبَدِ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ فِي الأُخْرَى وَقَالَ: «دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ هَكَذَا مَرَّتَيْنِ، لا، بَلْ لأَبَدِ الأَبَدِ» قَالَ وَقَدِمَ عَلِيٌّ بُدْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ مِمَّنْ حَلَّ وَلَبِسَتْ ثِيَابًا صَبِيغًا[2] وَاكْتَحَلَتْ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا عَلِيٌّ، فَقَالَتْ: أَمَرَنِي أَبِي بِهَذَا، فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ: فَذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرِّشًا[3] عَلَى فَاطِمَةَ فِي الَّذِي صَنَعَتْهُ مُسْتَفْتِيًا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الَّذِي ذَكَرَتْ عَنْهُ وَأَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا، فَقَالَ: «صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، مَاذَا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الْحَجَّ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ ﷺ، قَالَ: «فَإِنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ، فَلا تَحِلَّ» فَكَانَ جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الَّذِي جَاءَ بِهِ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ مِائَةً، ثُمَّ حَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّرُوا إِلا النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ .. [ابن ماجة، من الحديث ٣٠٦٥]

١- انصبت قدماه: انحدرت سهولة حتى وصل إلى بطن الوادي

٢- صبيغًا: ملونًا

٣- التحريش: الإغراء، والمراد هنا ذكر ما يعيب العتاب

يـــوم التـــروية:

مكث الرسول ﷺ بمكة من اليوم الرابع من ذي الحجة حتى يـــوم التروية -التاسع منه- وفيه توجَّه ﷺ إلى مِنى، يقول جابر ﷺ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى أَهَلُّوا بِالْحَجِّ، فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّـــى بِمِنًـــى الظُّـــهْرَ وَالْعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالصُّبْحَ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلاً حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ. [ابـــن ماجة، من الحديث ٣٠٦٥]، وكانت هذه شمس يوم عرفة

وقفة عرفة تميز حج المسلمين:

وقصد رسول الله ﷺ إلى عرفة دون أن يتوقف عند مزدلفة والمشعر الحـــرام مثلما كانت عادة قريش في الجاهلية، وفي هذا تصحيح لمناسك الحج وتمييز للحج في الإسلام، يقول جابر ﷺ: . وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ[1] فَضُرِبَتْ لَهُ[2] بِنَمِرَةَ، فَسَـــارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لا تَشُكُّ قُرَيْشٌ إِلا أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ أَوِ الْمُزْدَلِفَةِ كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَأَجَازَ[3] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَـــدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ، فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّـــمْسُ أَمَـــرَ بِـــالْقَصْوَاءِ فَرُحِلَتْ لَهُ[4]، فَرَكِبَ حَتَّى أَتَى بَطْنَ الْوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ. [ابن ماجة، مـــن الحديـــث ٣٠٦٥]

إعلان لحقوق الإنسان:

وفي هذه الخطبة جاء إعلان خطير الإسلام لحقوق الإنسان، حقه في حفـــظ

١- القبة الخيمة أو البيت المدور، والشعر الصوف

٢- ضربت له نصبت له

٣- أجاز: سار حتى عبر مزدلفة

٤- رحلت له جُهِّزت له

حياته وحسنه وصيانة ماله، وكذلك المساواة أمام القانون بين الحاكم والمحكوم، وتكريم المرأة

ففي شأن الحفاظ على النفس والمال يروي جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال "إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا" [ابن ماجة، من الحديث ٦٥ ٣]

وفي المساواة أمام القانون وسريان قواعد النظام العام على الحاكم والمحكوم قال ﷺ: "أَلا وَإِنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ[1]، وَأَوَّلُ دَمٍ أَضَعُهُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُهُ رِبَانَا، رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ." [ابن ماجه من الحديث ٦٥ ٣]

وفي العناية بحسن معاملة المرأة وتكريمها، قال ﷺ: "... فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ[2] أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ" [ابن ماجة من الحديث ٣٠٠٥]

القرآن دستورنا:

وتَوَّجَ رسول الله ﷺ الأمر بيان الدستور الذي يُرجَع إليه، فقال: "... وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَمْ تَضِلُّوا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ. كِتَابَ اللَّهِ، وَأَنْتُمْ مَسْئُولُونَ عَنِّي، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟" قَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ، فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ

١- دماء الجاهلية آثار الجاهلية، وموضوعة باطلة متروكة.

٢- يوطئن فرشكم: يدخلن بيوتكم

إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُبُهَا إِلَى النَّاسِ[1] "اللَّهُمَّ اشْهَدِ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ" ثَلاثَ مَرَّاتٍ [انظر ما سبق، من الحديث ٣٠٦٥]

الطاعة حق للحاكم المقيم لكتاب الله:

ولم يحتم رسول الله ﷺ حطته حتى سد بابًا من أبواب الفتنة، إنه باب التنافس على السلطة والحُكم، ذلك أنه ﷺ أوضح بجلاء أن العبرة بنوع الحُكم لا بشخص الحاكم، وأن الحاكم إن أقام فينا ولنا كتاب الله ﷻ فله الطاعة، فعَنْ أُمِّ الْحُصَيْنِ الأَحْمَسِيَّةِ قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ[2] قَدِ الْتَفَعَ بِهِ مِنْ تَحْتِ إِبْطِهِ، قَالَتْ: فَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى عَضَلَةِ عَضُدِهِ تَرْتَجُّ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا مَا أَقَامَ لَكُمْ كِتَابَ اللَّهِ[3]" [الترمذي، الحديث ١٦٢٨]

وهذا هو أساس قول دعاة الإسلام: إنهم [..لا يطلبون الحكم لأنفسهم، فإن وجدوا من الأمة من يستعد لحمل هذا العبء وأداء هذه الأمانة، والحكم بمنهاج إسلامي قرآني، فهم جنوده وأنصاره وأعوانه..][4].

تعاليم القرآن لا تنفك عن سطوة السلطان:

ومن هنا كانت كتب الفقه الإسلامي -قديمًا وحديثًا- فياضة بأحكام الإمارة والقضاء والشهادة، فضلاً عن الدعاوى واليوع والمعاملات والحدود والتعزيرات، ذلك لأن الإسلام له أحكام عملية وروحية، إن قررتها السلطة

١- يكبها إلى الناس: يشير بها إليهم

٢- البرد: ثوب مخطط يُلتحف به

٣- في رواية أحمد "ما أقام فيكم كتاب الله" من الحديث ٧ ٢٦٠

٤- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٣٧، ط. المؤسسة الإسلامية ١٩٩٢.

التشريعية فإنما تقوم على حراستها وإبعادها السلطان التعبدية والقضائية، ولهذا كانت تعاليم القرآن لا تنفك عن سطوة السلطان، ولهذا كانت السياسة الحكومية جزءًا من الدين[1]

دين الإسلام اكتمل جهارًا:

وقصى رسول الله ﷺ بقية يومه واقفًا بعرفة، ففي بقية حديث جابر ﷺ. ثُمَّ أَذَّنَ بِلالٌ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ، وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ، فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ إِلَى الصَّخَرَاتِ، وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ[2] بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ.. [ابن ماجة، من الحديث ٣٠٦٥]

وأثناء وقفة عرفة هذه اكتمل دين الإسلام جهارًا نهارًا، حدث هذا على مرأى ومسمع من الناس أجمعين في مؤتمر عام، وكان ذلك بنزول قوله ﷺ: ﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا..﴾[3]، فعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ أُنَاسًا مِنَ الْيَهُودِ قَالُوا: لَوْ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِينَا لاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، فَقَالَ عُمَرُ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ فَقَالُوا: ﴿..الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا..﴾ فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي لأَعْلَمُ أَيَّ مَكَانٍ أُنْزِلَتْ، أُنْزِلَتْ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ[4] [البخاري، الحديث ٤٥ ٤].

١- حسن الباء، مجموعة الرسائل ص ١٦٢، ط المؤسسة الإسلامية ١٩٩٢ (بتصرف يسير)

٢- حبل المشاة مكان احتماعهم

٣- من الآية ٣ من سورة المائدة

٤- قيل: إن هذا اليوم كان يوم جمعة، وقال البخاري قال سفيان وأشكُّ كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أم لا [الحديث ٤٢٤٠]

وارتكز دعاة الإسلام على إعلان هذا الاكتمال والتمام في صيانتهم لبقاء وأصالة التشريع الإسلامي، فحاربوا البدع التي تريد في الدين أو التي تُنقِصُ منه، فقالوا [وكل بدعة في دين الله لا أصل لها، استحسنها الناس بأهوائهم - سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه- ضلالة يجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها] ، وقالوا [. الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية.] [1]

وتوجه رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى المزدلفة، يقول جابر رضي الله عنه . وَدَهَتِ الصُّعْرَةُ قَلِيلاً حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ[2] خَلْفَهُ، فَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ شَنَقَ الْقَصْوَاءَ بِالزِّمَامِ[3] حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مورِكَ رَحْلِهِ[4]، وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى «أَيُّهَا النَّاسُ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ» كُلَّمَا أَتَى حَبْلاً مِنَ الْحِبَالِ[5] أَرْخَى لَهَا قَلِيلاً حَتَّى تَصْعَدَ، ثُمَّ أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ، فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا، ثُمَّ اضْطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ.

[ابن ماجة، من الحديث ٦٥ ٣]

يوم الحج الأكبر، يوم النحر:

وبعد صلاة فجر يوم النحر -العاشر من ذي الحجة- استكمل رسول الله ﷺ مناسك حجه، برمي الجمرات ونحر الهدي والإفاضة إلى البيت العتيق، يُضيف جابر رضي الله عنه .. فَصَلَّى الْفَجْرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ، ثُمَّ رَكِبَ

١- حسن أيوب، مجموعة الرسائل، ص ٢٥٦- ٢٥٨ ، ط المؤسسة الإسلامية

٢- أردف أسامة بن زيد: جعله يركب خلفه على الراحلة

٣- شنق القصواء بالزمام: ضمه وضيقه على رقبتها

٤- مورك الرحل: المكان الذي يضع فيه راكب الدابة رجله ليستريح من وضع رجله في الركاب.

٥- الحبل هنا هو تل الرمال، فالحبال في الرمل كالجبال في غير الرمل

الْقَصْوَاءَ حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ[1]، فَرَقِيَ عَلَيْهِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ[2] جِدًّا، ثُمَّ دَفَعَ[3] قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ بْنَ الْعَبَّاسِ، وَكَانَ رَجُلاً حَسَنَ الشَّعَرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا، فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّ الظُّعُنُ[4] يَجْرِينَ، فَطَفِقَ[5] يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ فَصَرَفَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ يَنْظُرُ، حَتَّى أَتَى مُحَسِّرًا[6] حَرَّكَ قَلِيلاً ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى الَّتِي تُخْرِجُكَ إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى، حَتَّى أَتَى الْجَمْرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ، فَرَمَى بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا، مِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ، وَرَمَى مِنْ بَطْنِ الْوَادِي [ابن ماجه من الحديث ٦٥ ٣]

وسمَّى رسول الله ﷺ يوم النحر بيوم الحج الأكبر، فعَنِ ابن عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: وَقَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ النَّحْرِ بَيْنَ الْجَمَرَاتِ فِي الْحَجَّةِ الَّتِي حَجَّ، وَقَالَ: «هَذَا يَوْمُ الْحَجِّ الأَكْبَرِ..» [البخاري، من الحديث ١٦٢٦]

خطبة تحذيرية عند الجمرات:

وخطب ﷺ في الناس خطبة حذَّر فيها من المسيح الدجال، ومن انتهاك حقوق الإنسان، ومن العودة إلى الكفر بعد الإيمان، وحرص رسول الله ﷺ على أن يسمعه الناس جيدًا، فأمر جريرًا ﷺ أن يدعو الناس للإنصات، فعَنْ جَرِيرٍ ﷺ

١- المشعر الحرام المزدلفة، وسُمِّي مشعرًا من الشعار، وهو العلامة، لأنه معلم للحج والصلاة والمبيت فيه، والدعاء عنده من شعائر الحج، ووصف بالحرام لحرمته

٢- أسفر جدًّا انكشف الصبح وأضاء مشدة

٣- دفع تحرك

٤- الظعن جمع ظعينة، وهي المرأة المرتحلة

٥- طفق بدأ وشرع

٦- محسر اسم موضع

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ له فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ: «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ» فَقَالَ «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» [البخاري، الحديث ٥٣ ٤]

وفي رواية عَنِ ابن عُمَرَ -رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا- قَالَ كُنَّا نَتَحَدَّثُ بِحَجَّةِ الْوَدَاعِ وَالنَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، وَلا نَدْرِي مَا حَجَّةُ الْوَدَاعِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَأَطْنَبَ فِي ذِكْرِهِ وَقَالَ: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ إِلا أَنْذَرَ أُمَّتَهُ، أَنْذَرَهُ نُوحٌ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ بَعْدِهِ، وَإِنَّهُ يَخْرُجُ فِيكُمْ، فَمَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكُمْ أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ عَلَى مَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ -ثَلاثًا- إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ » [البخاري، من الحديث ٥١ ٤]

حُرمَة المسلم كحُرمة المقدسات.

وعن ابن عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ النَّحْرِ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، قَالَ «فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ «فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا» فَأَعَادَهَا مِرَارًا، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ» -قَالَ ابن عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا- فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَوَصِيَّتُهُ إِلَى أُمَّتِهِ - «فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ» [البخاري، الحديث ١٦٢٣]

لا تزر وازرة وزر أخرى.

وروى عَمْرُو بن الأَحْوَصِ ﷺ نحو ذلك وزاد قول النبي ﷺ. « ألا لا يَجْنِي جَانٍ إِلا عَلَى نَفْسِهِ، ألا لا يَجْنِي جَانٍ عَلَى وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ عَلَى وَالِدِهِ. » [الترمذي، من الحديث ٨٥ ٢]

حظ الشيطان حقير:

وقال أيضًا ﷺ في خطبته تلك: «..أَلا وَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ مِنْ أَنْ يُعْبَدَ فِي بِلادِكُمْ هَذِهِ أَبَدًا، وَلَكِنْ سَتَكُونُ لَهُ طَاعَةٌ فِيمَا تَحْتَقِرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَسَيَرْضَى بِهِ» [الترمذي، من الحديث ٨٥ ٢]

حجة الوداع تأخذ اسمها:

أشهد رسول الله ﷺ ربه ﷻ على أنه بَلَّغَ الأمة، فعن عمرو بن الأحوص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال في هذا المقام: «..أَلا يَا أُمَّتَاهُ، هَلْ بَلَّغْتُ؟» ثَلاثَ مَرَّاتٍ، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ» [ابن ماجة، من الحديث ٣٠٤٦]

وعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: . فَطَفِقَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»، وَوَدَّعَ النَّاسَ فَقَالُوا: هَذِهِ حَجَّةُ الْوَدَاعِ [البخاري، من الحديث ١٦٢٦].

الرسول ﷺ ينحر الهدي:

واستكمل الرسول ﷺ مناسك الحج بنحر الهدي، قال جابر ﷺ: .. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْحَرِ فَنَحَرَ ثَلاثًا وَسِتِّينَ بَدَنَةً بِيَدِهِ، وَأَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ[1]، وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ فَطُبِخَتْ فَأَكَلا مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا، ثُمَّ أَفَاضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْبَيْتِ فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ، فَأَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَهُمْ يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ فَقَالَ: «انْزَعُوا[2] بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَوْلا أَنْ يَغْلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ[3]» فَنَاوَلُوهُ دَلْوًا فَشَرِبَ مِنْهُ. [ابن ماجة، من الحديث ٣٠٦٥]

١- ما عبر ما بقي

٢- انزعوا ارفعوا الماء من البئر

٣- لولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم. لولا خوفي أن يعتقد الناس أن ذلك من مناسك الحج ويرددون عليه بحيث يغلبونكم ويدفعونكم عن السقي لنزعت معكم لفضيلة هذا السقي

النبي ينهى عن الظلم بخطبته في أيام التشريق[1]

والقصى يوم النحر، يوم الحج الأكبر، وتلته أيام التشريق، وعاود الرسول ﷺ مخاطبة الناس، واهتم في خطبته هذه بالنهي عن الظلم بعد إعادة التأكيد على الحرمات الأساسية للإنسان المسلم

فعَنْ أَبِي حُرَّةَ الرَّقَاشِيِّ عَنْ عَمِّهِ ﷺ قَالَ: كُنْتُ آخِذًا بِرِمَامِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ أَذُودُ عَنْهُ النَّاسَ، فَقَالَ "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَتَدْرُونَ فِي أَيِّ شَهْرٍ أَنْتُمْ وَفِي أَيِّ يَوْمٍ أَنْتُمْ وَفِي أَيِّ بَلَدٍ أَنْتُمْ؟" قَالُوا فِي يَوْمٍ حَرَامٍ، وَشَهْرٍ حَرَامٍ، وَبَلَدٍ حَرَامٍ، قَالَ: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمٍ تَلْقَوْنَهُ" ثُمَّ قَالَ "اسْمَعُوا مِنِّي تَعِيشُوا، أَلا لا تَظْلِمُوا، أَلا لا تَظْلِمُوا، أَلا لا تَظْلِمُوا، إِنَّهُ لا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ إِلا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ، أَلا وَإِنَّ كُلَّ دَمٍ وَمَالٍ وَمَأْثَرَةٍ[2] كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ هَذِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ يُوضَعُ دَمُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي لَيْثٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ، أَلا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ اللَّهَ ﷻ قَضَى أَنَّ أَوَّلَ رِبًا يُوضَعُ رِبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ، أَلا وَإِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ" ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ ثم قال: "أَلا لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ

١- أيام التشريق هي أيام الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة، وهي التي تجري فيها النحر، وسُمِّيت بالتشريق؛ لأن لحوم الأضاحي تُشرَّق فيها، أي تُحفف في الشمس وتُملَّح لحفظها

٢- المأثرة ما أثر من مكارم الجاهليين ومفاخرهم

بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، أَلا إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ، وَلَكِنَّهُ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَكُمْ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ﷻ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّهُنَّ عِنْدَكُمْ عَوَانٌ[1] لا يَمْلِكْنَ لأَنْفُسِهِنَّ شَيْئًا، وَإِنَّ لَهُنَّ عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ حَقًّا، أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا غَيْرَكُمْ، وَلا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لأَحَدٍ تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ خِفْتُمْ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَإِنَّمَا أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللَّهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ ﷻ، وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنِ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا" وَبَسَطَ يَدَيْهِ فَقَالَ. "أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ" ثُمَّ قَالَ. "لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبَّ مُبَلَّغٍ أَسْعَدُ مِنْ سَامِعٍ" [أحمد، الحديث ١٩٧٧٤]

الناس سواسية والتقوى معيار التفاضل:

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ قال: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلا لا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلا لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلا بِالتَّقْوَى." [أحمد، من الحديث ٢٢٣٩١]

سورة النصر تنعي الرسول ﷺ:

ثم صَرَّحَ الرسول ﷺ بأن أجله قد اقترب عندما أنزلت عليه سورة النصر في أوسط أيام التشريق، لقد عرف ﷺ أنه الوداع، وأنه قد نُعِيَت إليه نفسه، فعَنِ ابن عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: "لَمَّا نَزَلَتْ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. "نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي" [أحمد، من الحديث ١٧٧٧]

١- عوان أسيرات، والعاني كل من ذل واستكان وخضع

بعث اليمن:

وبعدما انتهت مناسك الحج، وعاد الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، أراد الله ﷻ أن يُزال مركز صغير من مراكز الشرك كان ما يزال باليمن، فبعث رسول الله ﷺ جريرًا ﷺ لهذه المهمة، قال جرير ﷺ. قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلا تُرِيحُنِي مِنْ ذِي الْخَلَصَةِ؟» فَقُلْتُ. بَلَى، فَانْطَلَقْتُ فِي خَمْسِينَ وَمِائَةِ فَارِسٍ مِنْ أَحْمَسَ[2]، وَكَانُوا أَصْحَابَ خَيْلٍ، وَكُنْتُ لا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَضَرَبَ يَدَهُ عَلَى صَدْرِي حَتَّى رَأَيْتُ أَثَرَ يَدِهِ فِي صَدْرِي، وَقَالَ «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا» قَالَ: فَمَا وَقَعْتُ عَنْ فَرَسٍ بَعْدُ، قَالَ وَكَانَ ذُو الْخَلَصَةِ بَيْتًا بِالْيَمَنِ لِخَثْعَمَ وَبَجِيلَةَ، فِيهِ نُصُبٌ تُعْبَدُ يُقَالُ لَهُ: الْكَعْبَةُ، قَالَ: فَأَتَاهَا فَحَرَّقَهَا بِالنَّارِ وَكَسَرَهَا، قَالَ: وَلَمَّا قَدِمَ جَرِيرٌ الْيَمَنَ كَانَ بِهَا رَجُلٌ يَسْتَقْسِمُ بِالأَزْلامِ، فَقِيلَ لَهُ إِنَّ رَسُولَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ هَا هُنَا، فَإِنْ قَدَرَ عَلَيْكَ ضَرَبَ عُنُقَكَ، قَالَ. فَبَيْنَمَا هُوَ يَضْرِبُ بِهَا إِذْ وَقَفَ عَلَيْهِ جَرِيرٌ فَقَالَ: لَتَكْسِرَنَّهَا وَلَتَشْهَدَنَّ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، أَوْ لأَضْرِبَنَّ عُنُقَكَ، قَالَ. فَكَسَرَهَا وَشَهِدَ، ثُمَّ بَعَثَ جَرِيرٌ رَجُلاً مِنْ أَحْمَسَ يُكْنَى أَبَا أَرْطَاةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ يُبَشِّرُهُ بِذَلِكَ، فَلَمَّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا جِئْتُ حَتَّى تَرَكْتُهَا كَأَنَّهَا جَمَلٌ أَجْرَبُ، قَالَ. فَبَرَّكَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خَيْلِ أَحْمَسَ وَرِجَالِهَا خَمْسَ مَرَّاتٍ.

[البخاري، الحديث ٤٠٩٠].

١- ذو الخلصة صنم كانوا يعبدونه في الجاهلية.

٢- أحمس لقب لقريش ومن تابعها في الجاهلية، ولقبوا بذلك لتحمسهم في دينهم أو لاتحادهم بالحمساء وهي الكعبة

جيش أسامة بن زيد:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْثًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ، فَطَعَنَ بَعْضُ النَّاسِ فِي إِمَارَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ. «إِنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَايْمُ اللَّهِ، إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ»

[البخاري، الحديث ٣٤٥١]

*****

٣- وفاته ﷺ وحسم أمر الخلافة

الدعوة تُشعِل صاحبها.

عاش رسول الله ﷺ حياته مشعولاً في الدعوة، وعندما شعر ﷺ بدنو أجله، ظهر للصحابة ﷺ مدى اشتعاله بها، لقد أشار ﷺ للمسلمين بذلك، فقال في حجة الوداع وهو على بعيره. «يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا» [النسائي، الحديث ٣٠١٢]، وهكذا دائمًا يكون صاحب الدعوة، لا يغفل عن الإعداد لمستقبل الدعوة واحتياجات هذا المستقبل، مهما استغرقه هَمُّ حاضرها وأعباؤه

الصحابة يفطنون للتوديع:

وأحس الصحابة ﷺ بدنو أجل رسول الله ﷺ حينما وعظهم يَوْمًا بَعْدَ صَلاةِ الْغَدَاةِ[١] مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ[٢] مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ[٣] مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ. «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ[٤]، فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي

١- صلاة الغداة صلاة الصبح

٢- ذرفت دمعت

٣- وجلت خافت وفزعت

٤- محدثات الأمور الابتداع في الدين

وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ[1]" [الترمذي من الحديث ٢٦، وقال حسن صحيح[2]]

أوائل صَفَر.. إشارة وتحذير:

وفي أوائل صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة خرج النبي ﷺ كالمودع للأحياء والأموات، فَصَلَّى عَلَى أَهْلِ أُحُدٍ صَلاتَهُ عَلَى الْمَيِّتِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: "إِنِّي فَرَطُكُمْ[3]، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ، إِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الآنَ، وَإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ خَزَائِنَ مَفَاتِيحِ الأَرْضِ، وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ بَعْدِي أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا" [البخاري، الحديث ٣٣٢٩]

أواخر صفر . الرسول ﷺ يختار لقاء الله ﷻ:

وخُيِّرَ الرسول ﷺ، فاختار لقاء ربه، فَعَنْ أَبِي مُوَيْهِبَةَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ، فَقَالَ: "يَا أَبَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأَهْلِ الْبَقِيعِ[4] فَانْطَلِقْ مَعِي" فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، قَالَ "السَّلامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْمَقَابِرِ، لِيَهْنِ لَكُمْ[5] مَا أَصْبَحْتُمْ فِيهِ مِمَّا أَصْبَحَ فِيهِ النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا نَجَّاكُمُ اللَّهُ مِنْهُ، أَقْبَلَتِ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يَتْبَعُ أَوَّلُهَا

١- النواجذ الأنياب، وقيل الأضراس، والمراد شدة التمسك بالسنة

٢- الحديث الحسن عند المحدثين غير الترمذي، هو ما اتصل سنده بنقل راوٍ عدل خفيف الضبط من غير شذوذ ولا علة (الشذوذ مخالفة الثقة لمن هو أوثق منه، والعلة سبب خفي يقدح في صحة الحديث) أما الحسن عند الترمذي، فهو ما لم يرد إسناده متهم بالكذب، وليس شاذًا، ويروي نحوه من وجه آخر أما الحديث الصحيح عند المحدثين ومنهم الترمذي، فهو ما اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة وعندما يقول الترمذي عن الحديث (حسن صحيح)، فهو يعني أنه جاء من وجهين، أحدهما صحيح والآخر حسن، أو تردد فيه نظره، فهو عنده حسن أو صحيح

٣- الفرط: السابق والمتقدم

٤- البقيع مقابر المسلمين في المدينة

٥- ليهن لكم هنيئًا لكم

آخِرَهَا، الآخِرَةُ شَرٌّ مِنَ الأُولَى" قَالَ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ "يَا أَنَا مُوَيْهِبَةَ، إِنِّي قَدْ أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، وَخُيِّرْتُ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ لِقَاءِ رَبِّي ﷻ وَالْجَنَّةِ" قَالَ، قُلْتُ بِأَبِي وَأُمِّي، فَخُذْ مَفَاتِيحَ الدُّنْيَا وَالْخُلْدَ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةَ، قَالَ. "لا وَاللَّهِ يَا أَنَا مُوَيْهِبَةَ، لَقَدِ اخْتَرْتُ لِقَاءَ رَبِّي ﷻ وَالْجَنَّةَ" ثُمَّ اسْتَغْفَرَ لأَهْلِ الْبَقِيعِ ثُمَّ انْصَرَفَ، فَبُدِئَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الذي قَضَاهُ اللَّهُ ﷻ فِيهِ حِينَ أَصْبَحَ [أحمد، الحديث ١٥٤٢٥]

وكانت بداية تصريحه ﷺ بالشكوى من المرض في بيت السيدة ميمونة - رضي الله عنها- فعن عائشة -رضي الله عنها- قَالَتْ: أَوَّلُ مَا اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ مَيْمُونَةَ [مسلم، الحديث ٦٣٠]

الاثنين (٢٨ صفر) .. صداع يشتد وحُمَّى تتقد

في هذا اليوم شهد رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، وفي طريق العودة أحده صداع في رأسه واتقدت حرارته، حتى أنهم كانوا يجدون سورتها[1] فوق العصابة التي عَصَبَ بها ﷺ رأسه، وعندما رجع إلى بيته مع السيدة عائشة -رضي الله عنها- تقول وَارَأْسَاهْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ" [البخاري، الحديث ٦٦٧٧]

وكان ﷺ يَدُورُ فِي نِسَائِهِ[2] وَيَقُولُ: "أَيْنَ أَنَا غَدًا؟ أَيْنَ أَنَا غَدًا؟" حِرْصًا عَلَى بَيْتِ عَائِشَةَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمِي سَكَنَ. [البخاري، الحديث ٣٤٩]

التمريض الأخير في بيت عائشة:

حتى إذا كان الأسبوع الأخير من حياته، استأذن ﷺ أمهات المؤمنين

١- سورتها شدتها

٢- يدور في نسائه يذهب كل يوم عند واحدة منهن بالتناوب

-رضي الله عنهن- أن يُمَرَّض عند السيدة عائشة، تقول -رضي الله عنها-: لَمَّا ثَقُلَ[1] النَّبِيُّ ﷺ وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ اسْتَأْذَنَ أَزْوَاجَهُ فِي أَنْ يُمَرَّضَ فِي بَيْتِي، فَأَذِنَّ لَهُ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ رَجُلَيْنِ[2] تَخُطُّ رِجْلاهُ فِي الأَرْضِ. [البخاري، الحديث ١٩١]

إن رسول الله ﷺ على ما به من شدة المرض لا يسعى أن يطلب الإذن من أمهات المؤمنين ليقضي مدة مرضه في بيت أحب نسائه إليه، فهو الأسوة والقدوة في العدل بين الزوجات عند تعددهن، وذلك فيما يملك من الإقامة والنفقة، أما فيما لا يملك من الميل القلبي فلا شيء عليه.

وبدأت أحداث خاتمة حياته ﷺ تتوالى:

الأربعاء (٧ ربيع الأول).. يستعين بالماء لإلقاء آخر خطبة:

كان رسول الله ﷺ عندما يمرض تشتد عليه آلام المرض بقدر كرامته عند الله ﷻ، فهو ﷺ أكمل البشر وأمثل البشر لذلك، فهو ﷺ أشد البشر بلاءً، ولاحظ ذلك عَبْدُ اللَّهِ بن مَسْعُودٍ عندما دخل عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ[3] وَعْكًا شَدِيدًا، قال: فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ" فَقُلْتُ: ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ، فَقَالَ ﷺ: "أَجَلْ". [البخاري، الحديث ٥٢٢٨]

وتقول عَائِشَةُ زَوْجُ النَّبِيِّ ﷺ: إن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ: "هَرِيقُوا[4] عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ[5]، لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى

١- ثَقُل: صعُف لشدة مرضه

٢- الرجلان هما الفضل بن العباس وعلي بن أبي طالب.

٣- الوعك: الألم وشدة الحمى

٤- هريقوا: صبوا ٥- أوكيتهن: أربطتهن، والمراد من ذلك التأكد من طهارة ماء تلك القِرَب

النَّاسِ" فَأَجْلَسَاهُ فِي مِحْصَبٍ[1] لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقِرَبِ حَتَّى طَفِقَ يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ [البخاري، الحديث ٤٠٨٨]

ثم خَرَجَ ﷺ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى بِهِمْ بِمِلْحَفَةٍ[2] قَدْ عَصَّبَ بِعِصَابَةٍ دَسْمَاءَ[3]، حَتَّى جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الأَنْصَارُ حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ الْمِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ" [البخاري، الحديث ٣٣٥٦]

ثم قَالَ ﷺ "عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ" فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى، فَقَالَ. فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ، لا تُبْقِيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ[4] إِلا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ" [مسلم، الحديث ٤٣٩٠]، فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ. [البخاري، من الحديث ٣٣٥٦]

في هذا المجلس أشار رسول الله ﷺ إلى فضل جماعة من المسلمين، هم أنصار الله ورسوله، وإلى فضل رجل من المسلمين، هو أبو بكر الصديق ﷺ، وفي ذلك تمهيد لاستخلافه في الصلاة وإظهار لأهليته لخلافة رسول الله ﷺ، ويبدو جليًّا تأكيده ﷺ على معنى الأخوة الإسلامية، ومن هنا جعل الدعاة الأخوَّة ركنًا من أركان الدعوة، وعَدُّوها ثمرة من ثمرات العقيدة، يقول واحد منهم [وأريد

١- المحصب الإناء الذي يُغتسل به

٢- الملحفة الثوب فوق غيره من الثياب أو العطاء

٣- دسماء سوداء

٤- الخوخة باب صغير كالنافذة الكبيرة، تكون بين بيتين

بالأخوة: أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر]'.

الخميس (٨ ربيع الأول) . اشتداد الوجع:

ويحدثنا ابن عباس -رضي الله عنهما- عن هذا اليوم يقول: يَوْمُ الْخَمِيسِ، وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ، ثُمَّ بَكَى حَتَّى خَضَبَ دَمْعُهُ الْحَصْبَاءَ[٢]، فَقَالَ: اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ يَوْمَ الْخَمِيسِ، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا» [البخاري، من الحديث ٢٨٢٥]

فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ غَلَبَهُ الْوَجَعُ وَعِنْدَكُمُ الْقُرْآنُ، فَحَسْبُنَا كِتَابُ اللَّهِ، وَاخْتَلَفَ أَهْلُ الْبَيْتِ وَاخْتَصَمُوا، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ. قَرِّبُوا يَكْتُبْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَا قَالَ عُمَرُ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا اللَّغَطَ[٣] وَالاخْتِلافَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قُومُوا عَنِّي» فَكَانَ ابن عَبَّاسٍ يَقُولُ. إِنَّ الرَّزِيَّةَ[٤] كُلَّ الرَّزِيَّةِ مَا حَالَ بَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَيْنَ أَنْ يَكْتُبَ لَهُمْ ذَلِكَ الْكِتَابَ مِنِ اخْتِلافِهِمْ وَلَغَطِهِمْ. [البخاري، من الحديث ٦٨١٨]

وفي هذا الحديث يظهر شؤم الاختلاف والجدال، فمن قَتَل حُرِمَ الناس من تحديد ليلة القدر بسبب تلاحي رجلين[٥]، ومن أجل ذلك حرص دعاة الحق على أن تكون العلاقة بينهم أخوية أسرية، وأقروا بأن: [لا محل في الأسرة للجدل والحدة أو رفع الصوت][٦]

١- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ٢٧٦، ط دار الشهاب

٢- حصب: بلّ، والمراد المبالغة في البكاء، والحصباء: الحصى الصغير

٣- اللغط: اختلاف الأصوات وارتفاعها بما لا يُفهَم

٤- الرزية: المصيبة

٥- صحيح البخاري، الحديث ٥٥٨٩، والتلاحي: التنازع والتخاصم

٦- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ٢٨٨، ط دار الشهاب

الوصية دعوية لا شخصية:

ولم يحرم الله ﷻ الأمة من وصية نبيها لها، يقول ابن عباس. وَأَوْصَى ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ بِثَلاثٍ "أَخْرِجُوا الْمُشْرِكِينَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَجِيزُوا الْوَفْدَ[1] نَحْوَ مَا كُنْتُ أُجِيزُهُمْ." وَنَسِيَ ابن عبَّاس الثَّالِثَةَ [البخاري، من الحديث ٢٨٢٥]، ويظن صاحب الرحيق المختوم أن الوصية الثالثة هي الاعتصام بالكتاب والسنة، أو إنفاذ جيش أسامة، أو هي الصلاة وما ملكت الأيمان.

مغرب الخميس . آخر صلاة يؤم فيها ﷺ المسلمين:

وكانت آخر صلاة أمَّ فيها ﷺ المسلمين هي صلاة المغرب من يوم الخميس، قرأ فيها بسورة المرسلات، وكان ﷺ عاصبًا رأسه من الألم، فعَنِ ابن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– عَنْ أُمِّهِ أُمِّ الْفَضْلِ قَالَتْ: خَرَجَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَاصِبٌ رَأْسَهُ فِي مَرَضِهِ، فَصَلَّى الْمَغْرِبَ فَقَرَأَ بِالْمُرْسَلاتِ، قَالَتْ: فَمَا صَلاهَا بَعْدُ حَتَّى لَقِيَ اللَّهَ. [الترمذي، الحديث ٢٨٣، وقال: حسن صحيح]

وعنه أيضًا ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ أُمَّ الْفَضْلِ سَمِعَتْهُ وَهُوَ يَقْرَأُ: ﴿وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا﴾ فَقَالَتْ: يَا بُنَيَّ، وَاللَّهِ لَقَدْ ذَكَّرْتَنِي بِقِرَاءَتِكَ هَذِهِ السُّورَةَ، إِنَّهَا لآخِرُ مَا سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ بِهَا فِي الْمَغْرِبِ. [البخاري، من الحديث ٧٢١]

فالنبي ﷺ على ما كان به من شدة المرض كان يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم، وهو يوم الخميس، قبل الوفاة بأربعة أيام

وقد صلى ﷺ بالناس وهو مريض أحد عشر يومًا، وجميع أيام المرض كانت ثلاثة عشر أو أربعة عشر يومًا.

١– الإجازة الإذن والسماح، والمقصود هنا صيانتهم وإكرامهم

عشاء الخميس . استخلاف أبي بكر للصلاة:

وعند العشاء زاد ثقل المرض، ولم يستطع ﷺ الخروج إلى المسجد، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ»، فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ[1] فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ» فَفَعَلْنَا فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ؟» قُلْنَا: لا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «ضَعُوا لِي مَاءً فِي الْمِخْضَبِ» فَفَعَلْنَا، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ فَأُغْمِيَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «أَصَلَّى النَّاسُ؟» فَقُلْنَا: لا، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَتْ: وَالنَّاسُ عُكُوفٌ[2] فِي الْمَسْجِدِ يَنْتَظِرُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِصَلاةِ الْعِشَاءِ الآخِرَةِ، قَالَتْ: فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ. [سلم، من الحديث ٦٢٩]

أم المؤمنين تدفع التشاؤم عن أبيها:

وكان لأم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- رأي آخر، لم تكن السيدة عائشة ترغب في أن يتشاءم الناس بوالدها أبي بكر الصديق ﷺ إذا ما هو قام مقام رسول الله ﷺ، فشرعت -رضي الله عنها- في محاولة تخيب أبيها هذا الموقف، فحاولت إثناء النبي ﷺ عن تكليف أبي بكر بإمامة الناس، فقالت للنبي ﷺ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ، فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ» قَالَتْ عَائِشَةُ لِحَفْصَةَ: قُولِي لَهُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ

١- ينوء: ينهض بمشقة وجهد

٢- عكوف جمع عاكف، أي مجتمعون منتظرون

إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ مِنَ الْبُكَاءِ، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَعَلَتْ حَفْصَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ "مَهْ[1]، إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ[2] مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ" [البخاري، من الحديث ٦٧٥]

وتبين السيدة عائشة سر هذه المراجعة، حيث قَالَتْ لَقَدْ رَاجَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ، وَمَا حَمَلَنِي عَلَى كَثْرَةِ مُرَاجَعَتِهِ إِلا أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ فِي قَلْبِي أَنْ يُحِبَّ النَّاسُ بَعْدَهُ رَجُلاً قَامَ مَقَامَهُ أَبَدًا، وَإِلا أَنِّي كُنْتُ أَرَى أَنَّهُ لَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ أَحَدٌ إِلا تَشَاءَمَ النَّاسُ بِهِ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَعْدِلَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ أَبِي بَكْرٍ [مسلم، من الحديث ٦٣٢]

أبو بكر ﷺ يتواضع، وعمر ﷺ يُقَدِّمُه:

بلغ التكليف أبا بكر ﷺ، حيث أتاه رسول الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ -وَكَانَ رَجُلاً رَقِيقًا- يَا عُمَرُ، صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ عُمَرُ أَنْتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى بِهِمْ أَبُو بَكْرٍ تِلْكَ الأَيَّامَ [مسلم، من الحديث ٦٢٩]

وصلى أبو بكر ﷺ تلك الأيام سبع عشرة صلاة في حياته ﷺ.

وفي موقف الشيخين -رضي الله عنهما- درس بليغ يتجلى فيه الإخلاص بالبراءة من المطامع الشخصية، ولقد تلقف هذا الدرس دعاة الحق فجعلوه جوهر الدعوة فقالوا: [. وإننا نحمد الله براء من المطامع الشخصية، بعيدون عن المنافع الذاتية، ولا نقصد إلا وجه الله وخير الناس، ولا نعمل إلا ابتغاء مرضاته][3]

١- مه كلمة زجر وإنكار بمعنى اكفف

٢- إنكن لأنتن صواحب يوسف مثلهن في الجدال والإلحاح

٣- حسن البنا، مجموعة الرسائل، ص ١٤٣، ط دار الشهاب

ويريدنا موقف الفاروق عمر ﷺ درسًا آخر، إنه درس هو القمة في اطمئنان جندي الدعوة إلى قائده وثقته فيه بصدق، ولهذا جعل أئمة الدعوة الثقة من الأركان الأساسية في دعوة الإسلام، حتى قال أحدهم: [وأريد بالثقة اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه اطمئنانًا عميقًا يتسع الحب والتقدير والاحترام والطاعة][1].

طهر الجمعة (٩ ربيع الأول) .. أبو بكر إمام مؤتم:

وفي طهر يوم الجمعة خرج رسول الله ﷺ للصلاة، قالت أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها-. ثم إن رسول الله ﷺ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً، فَخَرَجَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا الْعَبَّاسُ لِصَلاةِ الظُّهْرِ، وَأَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَلَمَّا رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ذَهَبَ لِيَتَأَخَّرَ، فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ لا يَتَأَخَّرَ وَقَالَ لَهُمَا: «أَجْلِسَانِي إِلَى جَنْبِهِ» فَأَجْلَسَاهُ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُصَلِّي وَهُوَ قَائِمٌ بِصَلاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاةِ أَبِي بَكْرٍ وَالنَّبِيُّ ﷺ قَاعِدٌ. وسئل عَبْدُ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ عن الرَّجُلِ الذي كَانَ مَعَ الْعَبَّاسِ فقال: هُوَ عَلِيٌّ. [مسلم، من الحديث ٦٢٩].

عهد إلى عثمان ﷺ:

ثم طلب رسول الله ﷺ أن يرى بعض خواص أصحابه، فعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ: «وَدِدْتُ أَنَّ عِنْدِي بَعْضَ أَصْحَابِي» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلا نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَسَكَتَ، قُلْنَا: أَلا نَدْعُو لَكَ عُمَرَ؟ فَسَكَتَ، قُلْنَا: أَلا نَدْعُو لَكَ عُثْمَانَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَجَاءَ، فَخَلا بِهِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُكَلِّمُهُ، وَوَجْهُ

١- حسن الهاء، مجموعة الرسائل، ص ٢٧٦، ط دار الشهاب.

عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ، قَالَ أَبُو سَهْلَةَ مَوْلَى عُثْمَانَ إِنَّ عُثْمَانَ بن عَفَّان قَالَ يَوْمَ الدَّار[1]. إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا فَأَنَا صَابِرٌ إِلَيْهِ [ابن ماجة، الحديث ١١، ورواته ثقات].

كرم حتى النهاية

وكان رسول الله ﷺ قد أمر السيدة عائشة بإنفاق ستة دنانير أو سبعة كانت عنده، فشغلها مرضه عن ذلك، فلما شعر ﷺ بهذه الحمة سألها عنها، فَقَالَ: «مَا فَعَلَتِ السِّتَّةُ أَوِ السَّبْعَةُ؟»، قالت لا وَاللَّهِ، لَقَدْ كَانَ شَغَلَنِي وَجَعُكَ، فَدَعَا بِهَا ثُمَّ صَفَّهَا فِي كَفِّهِ فَقَالَ «مَا ظَنُّ نَبِيِّ اللَّهِ لَوْ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهَذِهِ عِنْدَهُ» [أحمد، من الحديث ٢٣٥٩، وفي سنده ستور]

وفي رواية قال ﷺ «مَا ظَنُّ مُحَمَّدٍ بِاللَّهِ ﷻ لَوْ لَقِيَهُ وَهَذِهِ عِنْدَهُ، أَنْفِقِيهَا» [أحمد، من الحديث ٢٣٠٨٩، ورواته ثقات]

واستلهم الدعاة من هذا التصرف معنى يرتون عليه أصحاب الدعوة إلى الله حتى ليصفهم الواصف بقوله: [.. لا يحلون على دعوتهم يومًا من الأيام بقوت أولادهم وعصارة دمائهم ولمن صروريائهم، فضلاً عن كمالياتهم والفائض من نفقاتهم.][2]

السبت (١٠ ربيع الأول): احتجاب:

قَالَ أَنَسٌ ﷺ لَمْ يَخْرُجْ إِلَيْنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثًا [مسلم، من الحديث ٦٣٧] أي أنه ﷺ مكث من ليلة السبت إلى صباح الاثنين لا يراه أحد من عامة المسلمين.

١- يوم الدار يوم أن اقتحم الخارجون عليه ﷺ عليه داره، بعد حصارها

٢- حسن الساعاتي، مجموعة الرسائل، ص ١٦٧، ط دار الشهاب

الأحد (١١ ربيع الأول). الوحي آخر أنيس.

وتتابع نزول الوحي، وكثُر على رسول الله ﷺ في مرضه، فعن أَنَس بن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَابَعَ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ الْوَحْيَ قَبْلَ وَفَاتِهِ حَتَّى تُوُفِّيَ أَكْثَرَ مَا كَانَ الْوَحْيُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ [البخاري، من الحديث ٤٥٩٩]

فجر الاثنين (١٢ ربيع الأول): ختام آخر نبوة.

أراد رسول الله ﷺ وهو يمر بآخر ساعات عمره أن يطمئن إلى الحق الذي ترك المسلمين عليه، والهداية التي أرشدهم إليها، فأراه الله منهم ما طابت به نفسه وقرّت له عينه، حتى غالب ذلك المشهد آلام الموت السارية في جسده فعلتها، وإذا بالبشر والسرور والرضا على وجهه، قَالَ أَنَسُ بن مَالِكٍ ﷺ -وَكَانَ تَبِعَ النَّبِيَّ ﷺ وَخَدَمَهُ وَصَحِبَهُ-. إِنْ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الذي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ[1] لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلاةِ فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ [البخاري، من الحديث ٦٣٩]

ويشير حديث آخر إلى أن الرسول ﷺ أعلن بنفسه ختم آخر نبوة على وجه الأرض، فعن ابن عبَّاسٍ قَالَ: كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ "أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ، يَرَاهَا الْمُسْلِمُ، أَوْ تُرَى لَهُ، أَلا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ

١- نكص على عقبيه تراجع إلى الوراء

سَاجِدًا، فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ، وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ، فَقَمِنٌ[1] أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ " [مسلم، من الحديث ٧٣٨]

وانصرف الناس، وهم يظنون أن رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه، واطمأن أبو بكر لهذا الظن، فرجع إلى أهله بالسنح في ضواحي المدينة، إلا أن رسول الله ﷺ لم يدخل عليه وقت صلاة أخرى.

ضحى الاثنين.. الأهل آخر جليس.

لما ارتفع الضحى اجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ يُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ، تقول عائشة -رضي الله عنها-: فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» فَأَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ، فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ: أَخَصَّكِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَدِيثِهِ دُونَنَا ثُمَّ تَبْكِينَ؟ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَأَلْتُهَا فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ حَدَّثَنِي «أَنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ كُلَّ عَامٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ فِي الْعَامِ مَرَّتَيْنِ، وَلا أُرَانِي إِلا قَدْ حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي، وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ» فَبَكَيْتُ لِذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّنِي فَقَالَ «أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ؟»، فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ [مسلم، من الحديث ٤٤٨٨]

١- قمن جدير وحقيق

كلمات كررها حتى لا تُنسَى

ومن الكلمات التي ألحَّ ﷺ في تكرارها أثناء مرضه "الصَّلاةَ، وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى مَا يَفِيضُ بِهَا لِسَانُهُ[1]. [ابن ماجة والمفرد به، الحديث ١٦١٤، ورواته ثقات]

وهي آخر كلمة سمعها عليٌّ رضي الله عنه منه ﷺ، قَالَ: كَانَ آخِرُ كَلامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ "الصَّلاةَ الصَّلاةَ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" [أحمد، الحديث ٥٥٢، ورواته ثقات]

وقال ﷺ: "لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ" يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا [البخاري، الحديث ٣١٩٥]

وأحد الوجع يشتد ويزيد، وقد ظهر أثر السم الذي أكله بخيبر، حتى كان يقول: "يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الذي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي[2] مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ" [البخاري تعليقًا في أول باب مرض النبي ﷺ ووفاته، من كتاب المغازي]

الاحتضار

تقول السيدة عَائِشَةَ: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ[3]، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَتَنَاوَلْتُهُ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ أَنْ نَعَمْ، فَلَيَّنْتُهُ [البخاري، الحديث ٤٠٩٤]

١- ما يفيض بها لسانه أي ما يجري ولا يسهل بهذه الكلمة لسانه

٢- الأبهر عرق في الجسم إذا انقطع مات الإنسان

٣- يستن به يتسوك به

وتقول -رضي الله عنها- ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ [البخاري، من الحديث ٨٤ ٤]

الرسول ﷺ يعاني آخر الكروب:

وكان بَيْنَ يَدَيْهِ ﷺ حال احتضاره رَكْوَةٌ[1] فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ» [البخاري، من الحديث ٩٤ ٤]

ورأت فاطمة -رضي الله عنها- ما برسول الله ﷺ من الكرب الشديد الذي يتغشاه، فَقَالَتْ وَا كَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيَوْمِ» [البخاري، الحديث ٤١٠٣]

الروح الطاهرة تفارق الجسد الشريف:

ثم سَمِعَت السيدة عائشة النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ وقد أَخَذَتْهُ بُحَّةٌ: «مَعَ الذين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [البخاري، الحديث ٤٠٨١]

وكانت رَأْسُهُ ﷺ عَلَى فَخِذِ عَائِشَةَ، فَغُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ الْبَيْتِ ثُمَّ قَالَ «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى» فقالت. إذن لا يُجَاوِرُنَا [البخاري، الحديث ٨٣ ٤]

ثم حاولت -رضي الله عنها- أن ترقيه، قالت: فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، فَانْتَزَعَ يَدَهُ مِنْ يَدِي ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَاجْعَلْنِي مَعَ الرَّفِيقِ الأَعْلَى» قَالَتْ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ قَدْ قَضَى [مسلم، الحديث ٦١ ٤]

١- ركوة إناء من جلد

الزهراء تنعي الرسول ﷺ.

فَلَمَّا مَاتَ ﷺ قَالَتْ السيدة فاطمة يَا أَبَتَاهُ، أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، مَنْ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ، إِلَى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ [البخاري، الحديث ٤١٠٣]

ثم سُجِّيَ[1] رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ مَاتَ بِثَوْبِ حِبَرَةٍ[2] [مسلم، الحديث ١٥٦٦]

وكان هذا حين اشتدت الضحى من يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ

الحزن يخيم على المدينة:

وتسرب السأم القادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها، قَالَ أنس: لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الذي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الذي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ. [الترمذي، الحديث ٣٥٥١، وقال غريب صحيح]

عثمان ﷺ يضطرب:

يقول عثمان ﷺ إِنَّ رِجَالاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَزِعُوا عَلَيْهِ، حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ أَنْ يُوَسْوِسَ[3]، فَكُنْتُ مِنْهُمْ [احمد، مسند الحديث ٢٤]

عُمَر ﷺ ينفعل ويتوعد:

لم يصدق عمر ﷺ الخبر، فما سمعه حتى تطرف في إنكاره، وقام وقال:

١- السجى: تغطية الإنسان وستره بعد موته

٢- ثوب حبرة: ثوب يماني مرين، من كتان او قطن

٣- الحديث الغريب هو ما انفرد بروايته راوٍ واحد ولو في طبقة واحدة، وعندما يقول الترمذي عن الحديث (غريب صحيح)، فهو يعني أنه جمع شروط الصحة، ولكنه لم يأتِ إلا من الوجه المذكور

٤- يوسوس: يدهش ويخلط كلامه

وَاللَّهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ وَاللَّهِ مَا كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي إِلا ذَاكَ، وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللَّهُ فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ [البخاري، من الحديث ٣٣٩٤]

أبو بكر ﷺ يعلن المصيبة:

وأقبل أبو بكر ﷺ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ، حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَلَمْ يُكَلِّمِ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَتَيَمَّمَ[1] رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَاللَّهِ لا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا، ثم خَرَجَ أبو بَكْرٍ وَعُمَرُ بن الْخَطَّاب يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أبو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لا يَمُوتُ [البخاري، من الحديث ٩٧ ٤]

(كل نفس ذائقة الموت) ناموس غالب[2]:

ويستمر أبو بكر في تقرير الحقيقة، فقال ﷺ .. قَالَ اللَّهُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ يقول ابن عباس -رضي الله عنهما-. وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلا يَتْلُوهَا، وقال عمر

١- تيمم قصد

٢- الناموس: القانون الذي وضعه الله ﷻ لتسيير الكون، والذي لا تتعثر ولا تتبدل، والناموس أيضًا صاحب سر الملك، أو الرجل الذي يطلعه على سرِّه وباطن أمره وخصه مما يستره عن غيره، ولذا سُمي جبريل ﷺ بالناموس

وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلاهَا، فَعَقِرْتُ[1] حَتَّى مَا تُقِلُّنِي رِجْلايَ وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ. [البخاري، من الحديث ٩٧ ٤]

وهكذا تمت حياته ﷺ المباركة في هذه الدنيا ثلاثًا وستين سنة، قال ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- بُعِثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَرْبَعِينَ سَنَةً، فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ، وَمَاتَ وَهُوَ ابن ثَلاثٍ وَسِتِّينَ [البخاري، الحديث ٣٦١٣]

حسم أمر الخلافة:

ووقع الخلاف بين المسلمين في أمر الخلافة قبل أن يقوموا بتجهيزه ﷺ، فحرت مناقشات ومجادلات وحوارات وردود بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بني ساعدة، تقول عائشة -رضي الله عنها-: . وَاجْتَمَعَتِ الأَنْصَارُ إِلَى سَعْدِ بن عُبَادَةَ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ بن الْخَطَّابِ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فَأَسْكَتَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَتَكَلَّمَ أَبْلَغَ النَّاسِ، فَقَالَ فِي كَلامِهِ. نَحْنُ الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، فَقَالَ حُبَابُ بن الْمُنْذِرِ: لا وَاللَّهِ لا نَفْعَلُ، مِنَّا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لا، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ دَارًا، وَأَعْرَبُهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ أَوْ أَبَا عُبَيْدَةَ بن الْجَرَّاحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَخَيْرُنَا وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ النَّاسُ [البخاري، من الحديث ٣٣٩٤]

١- عَقِرْتُ دهشت وتحيرت، ويقال سقطت

وشُغِلَ الناس عن تحهير رسول الله ﷺ حتى كان آخر الليل، ليلة الثلاثاء، وبقي حسده المبارك على فراشه، معشًّى بثوب حبرة، قد أُغْلِقَ دونه الباب، يقول عكرمة مولى ابن عباس تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، فَحُبِسَ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ وَلَيْلَتَهُ وَالْغَدَ، حَتَّى دُفِنَ لَيْلَةَ الأَرْبِعَاء [الدارمي، الحديث ٨٣، بسند مرسل[1] ورجاله ثقات]

الثلاثاء (١٣ ربيع الأول). تغسيله ﷺ في ثيابه.

وغَسَّلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلِيٌّ وَالْفَضْلُ وَأُسَامَةُ بن زَيْدٍ، وَهُمْ أَدْخَلُوهُ قَبْرَهُ [أبو داود، الحديث ٢٧٩٤، ورواته ثقات]

ولَمَّا أَحَدُوا فِي غُسْلِ النَّبِيِّ ﷺ نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ الدَّاخِلِ لا تَنْزِعُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَمِيصَهُ [ابن ماجة، الحديث ١٤٥٥، وفي سنده ضعف] فغسلوه ﷺ دون أن يجردوه من ثيابه.

وعَنْ عَلِيٍّ بن أَبِي طَالِب ﷺ أنه لَمَّا غَسَّلَ النَّبِيَّ ﷺ ذَهَبَ يَلْتَمِسُ مِنْهُ مَا يَلْتَمِسُ مِنَ الْمَيِّتِ[2] فَلَمْ يَجِدْهُ، فَقَالَ بِأَبِي، الطَّيِّبُ، طِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا [ابن ماجه، الحديث ١٤٥٦]

تكفينه ﷺ في أثواب بيض:

عَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كُفِّنَ فِي ثَلاثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ[3] مِنْ كُرْسُفٍ[4]، لَيْسَ فِيهِنَّ قَمِيصٌ وَلا عِمَامَةٌ. [البخاري، الحديث ١١٨٥]

١- الحديث المرسل هو الذي سقط من سلسلة سنده الصحابي

٢- ما يلتمس من الميت ما يحدث للميت من تغير رائحة وخروج إفرازات

٣- سحوليه بيضاء مصنوعة من قطن

٤- الكرسف القطن

صلاة الجنازة بدون إمام

عَنْ أَبِي عَسِيبٍ[1] ﷺ، أَنَّهُ شَهِدَ الصَّلاةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالُوا كَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْهِ؟ قَالَ ادْخُلُوا أَرْسَالاً[2] أَرْسَالاً، قَالَ فَكَانُوا يَدْخُلُونَ مِنْ هَذَا الْبَابِ فَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَخْرُجُونَ مِنَ الْبَابِ الآخَرِ [أحمد، من الحديث ١٩٨٣٨، ورجاله ثقات]

ليلة الأربعاء (١٤ ربيع الأول).. في اللحد[3] دُفِنَ ﷺ:

قالت عَائِشَةُ -رضي الله عنها- لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ. سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: «مَا قَبَضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ» ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ. [الترمذي، الحديث ٩٣٩، وقال غريب]

واختار الصحابة في طريقة دفن النبي ﷺ. هل يلحدون له أم يدفنونه في شق[4]، يقول أَنَس ﷺ لَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ بِالْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَلْحَدُ وَآخَرُ يَضْرَحُ[5]، فَقَالُوا نَسْتَخِيرُ رَبَّنَا وَنَبْعَثُ إِلَيْهِمَا، فَأَيُّهُمَا سُبِقَ تَرَكْنَاهُ، فَأُرْسِلَ إِلَيْهِمَا فَسَبَقَ صَاحِبُ اللَّحْدِ فَلَحَدُوا لِلنَّبِيِّ [ابن ماجة، الحديث ١٥٤٦]

وجُعِل تحته ﷺ قطيفة حمراء، يقول ابن عَبَّاس: جُعِلَ فِي قَبْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَطِيفَةٌ حَمْرَاءُ [مسلم، الحديث ٧ ١٦]

والذي أَلْحَدَ قَبْرَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَبُو طَلْحَةَ، وَالذِي أَلْقَى الْقَطِيفَةَ تَحْتَهُ: شُقْرَانُ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [الترمذي، الحديث ٩٦٨]

١- وقيل أبو عسيم، وهو مولى النبي ﷺ

٢- أرسالاً أفواجًا متتالية

٣- اللحد حفرة مائلة بجانب القبر يدرج فيها الميت

٤- الشق قبر في وسطه حفرة، وعلى جانبيه لبن

٥- يضرح، يشق شقًا يدفن فيه الميت

فَلَمَّا دُفِنَ ﷺ استبد الشعور الإنساني الفطري بفاطمة الزهراء -عليها السلام- فقالت لأنس ﷺ وقد علتها العاطفة. أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ! [البخاري، من الحديث ٤١٠٣]

أم أيمن تبكي علينا.

وَجَعَلَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَبْكِي، فَقِيلَ لَهَا: يَا أُمَّ أَيْمَنَ، تَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَبْكِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَلا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إِلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَكِنِّي أَبْكِي عَلَى خَبَرِ السَّمَاءِ انْقَطَعَ [الدارمي، من الحديث ٨٣، وسنده مرسل، ورجاله ثقات]

تركة الرسول ﷺ

يقول عمرو بن الحارث ﷺ أخو جويرية أم المؤمنين مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلا دِينَارًا وَلا عَبْدًا وَلا أَمَةً وَلا شَيْئًا، إِلا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَسِلاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً [البخاري، الحديث ٢٥٣٤]

وتقول عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ بِثَلاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ [البخاري، الحديث ٢٧٠٠]

الخبر يصل اليمن:

ووصل خبر موت رسول الله ﷺ إلى اليمن، فعَنْ جَرِيرٍ ﷺ قَالَ كُنْتُ بِالْيَمَنِ فَلَقِيتُ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ: ذَا كَلاعٍ وَذَا عَمْرٍو، فَحَدَّثْتُ أَحَدُهُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ ذُو عَمْرٍو. لَئِنْ كَانَ الَّذِي تَذْكُرُ مِنْ أَمْرِ صَاحِبِكَ لَقَدْ مَرَّ عَلَى أَجَلِهِ مُنْذُ ثَلاثٍ، وَأَقْبَلا مَعِي حَتَّى إِذَا كُنَّا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ رُفِعَ لَنَا رَكْبٌ مِنْ قِبَلِ الْمَدِينَةِ، فَسَأَلْنَاهُمْ، فَقَالُوا: قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ

وَالنَّاسُ صَالِحُونَ، فَقَالا أَخْبِرْ صَاحِبَكَ أَنَّا قَدْ حِئْنَا، وَلَعَلَّنَا سَنَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَرَجَعَا إِلَى الْيَمَنِ فَأَخْبَرْتُ أَبَا بَكْرٍ بِحَدِيثِهِمْ، قَالَ أَفَلا حِئْتَ بِهِمْ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ قَالَ لِي ذُو عَمْرٍو يَا حَرِيرُ، إِنَّ بِكَ عَلَيَّ كَرَامَةً، وَإِنِّي مُخْبِرُكَ حَبَرًا: إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَنْ تَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا كُنْتُمْ، إِذَا هَلَكَ أَمِيرٌ تَأَمَّرْتُمْ فِي آخَرَ، فَإِذَا كَانَتْ بِالسَّيْفِ كَانُوا مُلُوكًا يَغْضَبُونَ غَضَبَ الْمُلُوكِ، وَيَرْضَوْنَ رِضَا الْمُلُوكِ [البخاري، الحديث ١١ ٤]

حيٌّ في القلوب:

مات رسول الله ﷺ، ولكنه بقي بيننا حيًّا بسُنَّتِه وأحاديثه وسيرته، فهي محفوظة بأمر من الله الحفيظ، إذ قيَّض لها رجالاً أفنوا أعمارهم في تدوينها وتدقيقها وبيان صحيحها من سقيمها، فرسول الله ﷺ حي بيننا، يراه المسلمون ويسمعونه، ما داموا يطرقون إلى سنته ويقتدون به.

ولم يحرمنا الله ﷻ من اتصال قلبي سيدنا ﷺ بسمعه أصحاب الأرواح السامية والقلوب الرقيقة، إذ يخاطبهم رسول الله ﷺ بقوله: "إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ". [مسلم، الحديث ٥٧٧]

فمع كل أذان تسمعه تذكَّر حبيبك، تذكَّر سُنَّته، تذكَّر هديه، ثم صلِّ عليه، وسل الله له الوسيلة، لعلك تحظى بشفاعته، في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا وحبيبنا محمد، واحشرنا يوم القيامة في زمرته وتحت لوائه